١٢

# أول من نزل عن حماره خضوعًا

## عنتر مكاوي

واستقبلتهم المدن الكبرى بلا أدنى اهتمام.. السيد عباس النحال وأخوه أمير ذهبا إلى العاصمة الزاهرة. وفريد هنيدى ومعه رأفت إبراهيم ذهبا إلى الثغر الجميل.

لم يحرص السيد على وداع والده لكنه كان حريصًا على أمرين، أحدهما من قلبه الذى تربعت فيه خميسة عفيفى، والثانى من عقله الذى يتربع فيه بشكل مؤقت صديقه اللدود المرابى فتيان فتيان.

فعندما أسرع إليه بعد ظهور النتيجة ليُمسك بمبلغه المنتظر قابله فتيان بوجه عابس:

ـ أنا حسبت الحسبة ووجدتها خسرانة..»

وفهم السيد أن مموله العنيد يطمع فى زيادة أرباحه، فقرر ألا يناقشه أو يراوغه:

ـ «قل إنك تطلب ضعف القرض.. أى ألف جنيه موافق.. أعطنى ورقة أيها المفترى»

ابتسم فتيان فى خبث لا يخلو من خيلاء:

ـ «هكذا أنت يا سيد..تجعل من الحبة قبة، وتحمّل الأمور أكثر من طاقتها..»

وكأنه لم يسمعه وإنما راح يتحدث وهو يكتب إيصال أمانة قيمته ألف جنيه، وحديثه كله يتعلق بنيته فى إرسال عنوانه الجديد فى مصر المحروسة عاصمة البلاد وحلم العباد ليزوره فيها خاصة بعد استقرار العمل فى مشروع الموبيليا الذى سينقلها إلى عالم الثراء الحقيقى.

* * *

obeikan.com

ذهب السيد إلى منزله وأغلق باب غرفة الأولاد على نفسه وأتى بحزام من القماش ربطه على بطنه قبل ارتداء ملابسه الداخلية وأخفى به المال ليس خوفًا من النشالين، وإنما خوفًا من أن يموت بعيدًا عن ثروته التى سيغزو بها عالم الحشيش.

سلم على أمه وما تيسر من أخوته، وتجاهل نظرة ذات مغزى فى عينى أمه.. فقال لها:

ـ «ابقى سلم لى عليه..»

فراحت تتأمل ظهره وهو يغادر الباب:

ـ «وكأن عباس أبوكم لا خلّف.. ولا ربّى..»

كانت خميسة فى عمق الدكان حين عادت إلى الواجهة فوجدته يقف أمام البنك يتأمل كتبها المدرسية المرصوصة على منضدة أسفل الأرفف ومنها كتاب مازال مفتوحًا عن قلم يرقد بين دفتيه. عرف أنها عقدت العزم أن تعوض عامها الماضى الذى ضاع هدرًا وتدخل من المنازل امتحان الصف الثانى الثانوى بقفزة واحدة، فقال لها وعينه على الكتاب:

ـ «لو كنت مكانك لدخلت الثانوية العامة مرة واحدة»

ضحكت بأسى وهى تدقق فى حقيبة سفره التى ركنها على البنك واتكأ عليها، ثم قالت:

ـ «لو ظللت هنا فى البلد وتوظفت بها لشجعتنى على ذلك.»

علق على فمه ابتسامة مراوغة، وقال لها:

ـ «عندما تلحقين بى بعد عامين إلى القاهرة وتلتحقين بالجامعة، ربما أكون فى وضع يسمح لى أن أخطب طالبة جامعية، هذا إذا وافقتْ هذه الطالبة أن ترتبط بواحد لا يحمل إلا دبلوم الصنايع..»

ـ «..أنت تعلم أنى لن أختار غيرك من وسط مئات يحملون الدكتوراه»

ـ «هذا البلد لا يتسع لأحلامى يا خميسة.. ولا أفكر مثلك فى شهادة عالية»

عادت إليه بوجهها المشرق الطافح بسعادة تطل من عينيها، وقالت له:

**ـ «البوسطجى يسلمنى كل خطابات أهـل البلد لأسلمها لهـم، سـأنتظر منـك خطابًـا بمجرد وصولك.. اكتب على المظروف اسم أخى رجب.. واكتب عنوانك بالداخل..».**

* * *

وقبل أن يتسلم عمله فى مطابع الصباح بشارع القصر العينى كان قد أدى بعض المهـام التى لا بـد منهـا. فاسـتأجر شـقة صـغيرة مـن غـرفتين وصـالة بحـى المنـيرة، وزودهـا بالمفروشات اللازمة.. ثم انطلق إلى المدينة الجامعية باحثًا عن أخيه أمير.

رُدّت الحياة لأمير وهـو يرى أخاه السيد أمامـه وجهًـا لوجـه، واحـتفظ لنفسـه بكـل عبارات الاحتجاج التى كان قد حفظها لينطقها مرة واحدة أمام أخيه السـيد الـذى تركـه أسبوعًا بلا مال إلا أقل من نصف جنيه المتبقى من رسوم المدينة.

لم يعطه مالًا فقط، لكنه ساح به أمام فترينات شارع قصر النيل لينتقـى لـه بدلـة أنيقـة وعدة قمصان ورباطى عنق وحذائين.. ولأن السيد أنفق عشرة جنيهـات كاملـة أو يزيـد دون أن يهتز له جفن فقد تعجب أمير أن يتولى السيد هـذا الإنفـاق بكـل هــذه الكفـاءة، وعاد إلى سؤاله: كيف تعهدا ـ بدير والسيد ـ أن يتوليا الإنفـاق عليـه وهــو لا يعلـم لأىٍّ منهما وظيفة معينة ذات دخل ثابت؟»

ولما عرج به على محل جروبى ليتناولا بعض المشروبات ويرتاحا من مشاوير التسـوق، تعجب أمير أن ينتقى أخاه هـذا المكان المكلف، وتذكر ما قاله له فريد هنيدى بعد معركـة جوهر البقال من أن السيد له علاقة بعالم الحشيش، وأنه جند المرشد للإيقاع بجوهر.

**ـ «إذن، فهـذه كلها أموال حشيش!!»**

مال عليه هـامسًا:

**ـ «ظننتك ستأخذنى لنرتاح فى منزلك بديلًا عن هـذا المكان المكلف يا سيد؟»**

لم يفاجأ السيد بهذا السؤال اللئيم المصنوع بمهارة، فقد كان مستعدًا للإجابة عليه:

**ـ «لم أعثر على شقة لنفسى، أقيم بشكل مؤقت عند أحد زملاء المطبعة، على أية حال فى حال احتياجك لى اتصل بى فى مطابع الصباح، وهـذا هـو رقم التليفون..»**

وفى شقته فك الخزينة وراح يعد ما تبقى معه وليحسب مقدار ما أنفقه.. أربعون جنيهًا كاملة ضاعت فى ترتيب أمور الاستقرار والوجاهة.. أصابه فزع خفيف، ورأى أن يبدأ حملته المرسومة سلفًا للإمساك بخيط الحشيش من منبعه العتيد فى حى الباطنية..

* * *

ارتدى طاقمه الريفى المكون من جلباب بلدى وكوفية حريرية ودخل لأول مرة إلى حى الباطنية فى هيئة المعلمين. فقد وجد أن الكوفية يمكنها أن تتحول إلى لثام يوارى به وجهه عند اللزوم.. ولكنه طرحها عن وجهه وهو يحتل مقعده فى المقهى، ثم وهو يختار نفس المقعد فى اليوم التالى.. واليوم الثالث إلى أن تحول إلى موضع استغراب وتساؤل لكثرة تردده دون أن يفصح عن مطلبه..

واقترب منه شاب متين البنيان، كث الشعر، أسمر الوجه، بعينيه جسارة وبلهجته تهكم:

ـ «كأنى رأيتك من قبل»

ـ «إذن، ربما قد رأيتنى فى الإسكندرية»

ـ «هل أنت من الإسكندرية»

ـ «الأنفوشى»

ـ «أجدع ناس، وماذا تعمل؟»

ـ «أنا كاتب أغانى.. ولكنى بلا عمل»

ـ «أو تكسب من الأغانى؟..»

ـ «جئت لأقدم نفسى للإذاعة والملحنين والمطربين، وقيل لى إن بعضهم يتردد على الباطنية طلبًا لأمور المزاج فقلت لنفسى أقابلهم هنا، هل يمكن أن تدلنى عليهم؟»

ربت الشاب على ركبتيه بسرور قبل أن ينهض:

ـ «عن إذنك يا أستاذ.. سأغيب قليلًا وأعود إليك.. لم تقل لى عن اسمك؟»

ـ «السيد عباس.. أنا فى انتظارك.. لا تتأخر»



obeikan.com

ثم تأمل ظهر الشاب وهو يبتعد عنه فى همة ملحوظة ورنا إلى صاحب المقهى خلسة وعرف أن هذا الشاب الناضورجي يسرع الآن بمعلوماته الطازجة إلى معلميه كى يطمئنهم عن زائر الحى الوجيه الغامض.. وسرعان ما سوف يعود بعد قليل بعد أن يقدم تقريره اللازم.

وعاد إليه الشاب بوجه متهلل وواصل الحديث معه كأنه لم ينقطع:

- «قلت لى إنك جئت لمقابلة الملحنين..»

- «هذا ما فكرت فيه.. أريدك أن تدلنى عليهم»

- «الأمر يتوقف على الأسماء التى تفكر فى أصحابها»

- «الموجى، وبليغ حمدي، ومنير مراد..»

- «أنت تقول إنك بلا عمل.. ومجاملات الحشيش مكلفة.. فمن أين لك بهذه المقدرة»

ومرة أخرى يرسم السيد على وجهه علامات الثقة وهو يهز رأسه قائلًا:

- «إن كنت قلت لك إننى بلا عمل.. فليس معنى هذا أننى بلا مال.. فواحد مثلى والده يملك عدة سيارات لورى للنقل لا يمكنه أن يحيا بروح العاطلين..»

تأمله الشاب باعتدال: «الآن فهمت..»

ولاذ بقليل من الصمت، ثم رفع إليه وجهه الطافح بالمودة وقال له:

- «أنا لاحظت أنك لم تطلب فى شيشتك حجرًا واحدًا مغمسًا بالحشيش..»

رفع السيد يديه إلى الهواء بحبور مقصود:

-«حشيش؟..هل هذا المكان به حشيش..؟ كدت أكفر بهذه الشائعة..»

قام الشاب وفرد طوله ثم وضع يده فى جيبه ونادى على الجرسون:

- «خذ ياعبد العال، خذ هذه.. جهز للأستاذ كراسيه منها..»

وتناول الجرسون قطعة دسمة من الحشيش، وغاب بها فى الداخل، ثم عاد بشيشة جديدة تناولها السيد وسحب منها أنفاسًا نهمة حتى اشتعلت النار فى رأس الحجر، فصاح الشاب:

obeikan.com

ـ «الله الله يا أستاذ.. أنت حشاش قرارى، آى والله.. إنك حشاش قرارى..»

وقال السيد وهـو يواصل شد الأنفاس العبقة:

ـ «تسألنى عن اسمى فتعرفه، ثم تبخل على باسمك»..

ـ «أنا اسمى عنتر مكاوى.. من السكاكينى.. ابن المنطقة.. وخادمك.. ورقبتى سدّادة»

ثم صمت قليلًا، وتأمل وجه السيد:

ـ «أفهم من هـذا أنك قد تحتاج الحشيش لجهتين: جهة ناحية الفنانين الأكابر.. والتانية جهة السواقين ورجال السيد الوالد.. عجيبة.. ما أبعد هـذا عن ذاك؟»

هـزَّ السيد رأسه بالموافقة وهـو ينفث نافورة من الدخان ملأت أنفه وفمه.

فواصل عنتر مكاوى أسئلته: «بكم ستحتاج فى أول الأمر من الحشيش؟»

كان السيد قد غرق فى موجة دخان أخرى، فرفع له إصبعين فى الهـواء.. فهتـف عنـتر متسائلًا:

ـ «جنيهان؟»

ثم ظهرت على وجهه علامات السخرية وخيبة الأمل: «يارجل..؟ أوجعت قلبى مـن الصباح ثم...»

أفرغ السيد فاه من الدخان وتهيأ للكلام:

ـ «مائتا جنيه ياعنتر.. إصبعىّ هـذان الإصبع الواحد بمائة جنيه..»

ضحك عنتر ملء فيه:

ـ «قل هـكذا.. تِسْلم وتِسْلم أصابعك. أنا فهمت خطأ وانزعجت..»

نهض عنتر هـذه المرة وهـو يوجه حديثه إلى عبد العال:

ـ «عن إذنك يا عبد العال، أنا سأجهز الحجر بنفسى للمعلم السيد..»

أيقن السيد النحال أن ما يفعله عنتر مكاوى الآن هـو أنـه نـزل عـن حمـاره احترامًـا وتقديرًا لشخصه الجديد، شخصه الذى يملك أموالًا طائلة ..

وباهـتمام بالغ واعتدال واضح راح عنتر مكاوى يـؤدى مهمـة التخـديم عـلى ضـيفه

الممتلئ مالًا وتجربة، وكان وهـو يفعل ذلك يفكر فى أشياء كثيرة راحت تشغله، وهـا هـو يفصح عن شيء منها فهمس للسيد:

ـ «اسمع، أنا أشم فيك رائحة الرجولة.. أنت تحلم بشيء كبير، أنا أعرفه، ومعك المال، وأنا أحلم بنفس الشيء ولا أملك المال.. فدعنى أجرب معك شغلًا على أساس متين، دعك من التمثيلية التى دخلت علىَّ بها. إنت داخل على سوق جديد عليك.. أنا معك، ونتعامل مع بعض من النهاردة بصراحة»

ـ «إذن سأصف لك مكانًا بعيدًا عن هنا تقابلنى فيه»

* * *

وفى محل جروبى شاهد عنتر مكاوى رجله الجديد يرفل فى بدلة رائعة ومجللًا بالأبهة والأناقة فهتف وهو يصافحه ويعانقه:

ـ «هـذا ما قلته لنفسى أنك ابن أكابر..»

ـ «هذا من لطفك.. وأنا قلت لنفسى أنك ابن ناس.. ولن أخشى جانبك.»

ـ «إذن، فضع أمامى شروطك..»

ـ «قل لى بصراحة، ما الذى قلته عنى للمعلم الكبير عندما تركتنى أول مرة وانصرفت لتقابله؟..»

تململ عنتر قليلًا وصّوب إليه نظرة استغراب، ثم قال بصوت خجل:

ـ «قلت له عنك إنك ريفى عبيط جاء لمقابلة محمد الموجى وهو يشترى الحشيش ليتعرف عليه، وضحك المعلم وكل من معه حتى تمنوا أن لو كنت أحضرتك معى إليهم ليتسلوا بك..»

ـ «جميل.. وماذا قلت له بعد انصرافى؟»

ـ «كان قد ترك الوكالة وخرج ولم يسألنى عنك بعد ذلك»

ـ «أى وكالة؟»

ـ «وكالة أعشاب وعطارة.. مجرد ساتر أمام الحكومة كل تجار المخدرات لديهم سواتر

لزوم التخفى.. معارض ومحلات ومقاهى.. إلخ»

«اكتشف السيد النحال فجأة أنه يملك ساتره الخاص الموجود فعلًا.. خميسة عفيفى.. فدكان البقالة فى البلد لن يقل مفعوله عن وكالة العطارة فى الباطنية.. أمام الحكومة أو أمام الناس»

انفتحت أمامه كوة مضيئة فى حائط مظلم.. وقرر للتو أن يتولى بنفسه وبهدوء وتأن نشاطه مع بدير فى البلد .. ثم يسلمه لعنتر قبل أن يتجه إلى مكان آخر.. المهم الآن هو أن يستلم البضاعة وبسعر معقول يحقق له ربحًا مغريًا.

عاد فأكمل جلسته مع عنتر، باحثًا معه تفاصيل كثيرة كان لا بد منها، ثم وجد أنه من الملائم أن يحصل على البضاعة ويذهب بها إلى بدير حتى يستعد لمهمته الجديدة وصنفه الجديد:

**ـ «تلزمنى عينة.. ويلزمنى الاتفاق على سعرها.. وأستلم بعد عشرة أيام..»**

**ـ «إذن، نتقابل غدًا فى الباطنية.. وتعال بالجلباب والبالطو..»**

* * *

سارع فكتب إلى خميسة خطابه الأول، وتعجب أن عينه لم تكن على قلبها قدر ما أصبحت تتلمظ دكانها.. الدكان الساتر الذى يمكنه أن يكون غطاء بريئًا فى مستقبل الأيام..

ولم تجد خميسة تفسيرًا لكل هذه التنبيهات التى رصدها السيد فى خطابه.. فعنوانه لا يجب أن يعرفه أحد غيرها.. وخطابه يجب أن يوضع فى مكان أمين حتى لا يقرأه أحد آخر.. وهو إذا زار البلد فسوف تكون زيارة سريعة لن يهتم فيها بمقابلة أحد سواها.. حتى أنه إذا ترك رسالة لأخيه بدير فسوف يتركها عندها.. وكل رسائله لبدير الذى لا يستقر فى مكان بعينه ستكون مشتروات لإخوته يقوم بدير بتوزيعها بنفسه عليهم، وهو إن لم يتمكن من الحضور لسبب ما فسوف يبعث برسائله مع صديق هو يثق فيه اسمه عنتر مكاوى.. «وهو من بلد قريب لنا تقطن فيه زوجته التى يزورها كل أسبوع..»

ووجدت الفتاة تعليمات.. وأوامر.. وتنبيهات.. وخطط مقابلات.. ولم تجد خميسة ما

كانت تنتظره بشغف: أغنية هى بطلتها وملهمتها.. أو كلمات الحب التى لا تزدهر إلا فى خطابات الغرام..

فماذا دهاه هذا الرجل؟.. هل به خشية أن يقع خطابه فى يد أبى..؟

ذات ظهيرة فوجئت به أمامها وجهًا لوجه.. أنيقًا كما لم تشاهده من قبل، كل شىء فيه يلمع.. بدلته.. رباط عنقه.. حذاؤه.. ساعته.. وجهه.. شعره.. ابتسامته..

ورقص قلبها من الفرحة عندما تأكدت أنه لم يبدأ إلا بها فى هذه الزيارة التى تجىء بعد ستة أسابيع غابها عن البلد.. وصاحت عندما قدم لها هديتها ثلاثية القطع: حقيبة يد.. وحذاء.. وبلوزة..

**ـ «كل هذا لى؟»**

**ـ «وفى المرة القادمة سأكون عثرت لك على الجيب الملائم لهذه البلوزة..»**

رمقته خميسة بذهول:

ـ «هل الناس فى مصر المحروسة يصيبهم الجمال بكل هذه السرعة..؟ كدت لا أعرفك يا سيد..»

ـ «المكان يمنح الحب لمن يحبه يا خميسة.. وأنا ما كرهت هذا البلد بما فيه إلا لأنه كرهنى..»

ـ «يكاد يغمى علىّ ياسيد من الفرحة، رائحة القاهرة عالقة فى قماش البلوزة وجوف الحقيبة وجلد الحذاء.. رائحة متمدينة.. ليست هى العطر.. وليست هى البخور.. وليست هى رائحة حقولنا فى الصباح.. ولكنها خليط ساحر من كل هذه الروائح الجميلة..»

ـ «هكذا تشمينها عن بعد.. وتحسين بها عبر المسافات.. اجتهدى ياخميسة وانتهى من شهادتك والحقى بى هناك..»

وقبل أن ينصرف توقف فجأة، وقال لها:

**ـ «آه.. ذكرتيني.. صديقى الذى حدثتك عنه فى الخطاب اسمه عنتر مكاوى.. من بلد**

هـنا يجاور بلدنا.. يحضر كل مدة لرؤية عائلته.. أنت تعـرفين أن منزلنـا لـيس قـدر المقـام حتى يذهـب برسائلى إليه.. سأترك الرسائل عندك حتى يحضر بدير لاستلامها.. ولا أحد يستلمها غير بدير..»

فردت مسرعة:

ـ «منذ أن قلت لى عنه فى خطابك.. وأنا فى انتظاره؟»

* * *

ثم طار إلى بدير فعثر عليه ثم اختلى به وأخرج له من حقيبته ثلاث تُرب مـن الحشـيش ما إن رآهـا بدير حتى شهق من المفاجأة، ثم ازدادت شهقته عندما عرف أن هـذه الكميـة هى أول الغيث الذى سوف يتسلمه كل عشرة أيام على الأكثر فى شـكل رسـالة مـن عنـد خميسة عفيفى.

ـ «هـل أشركتها معنا؟..»

ـ «هى كالحمار الذى يحمل الأسفار.. لا تعلم ما ستأخذه مـن عنـتر مكـاوى منـدوبى إليها، ولا تعلم ما سوف تأخذه أنت منها.. ولكن ما سوف أحرص عليـه هـو أن تصـل أنت إليها بعد وصول عنتر بساعتين على الأكثر..»

ـ «ألن تذهـب إلى البلد لترى أمك وأباك»

ـ «فى المرة القادمة.. سلم عليهما.. والبركة فيك.. ضع عينـك فى رأسـك يـا بـدير.. فى الأول سـتتعب حتـى تأخـذ مكلنـك بـين التجـار، وأن ترتـب لنفسـك رجـالًا مخلصـين يساعدونك، والله معك..»